أُرِيدُ الرَّحْمَةَ

مارينا روماني

أريد الرحمة

بقلم مارينا روماني

...إهداء

.إلى كل شخص ما زال في قلبه ولو فتاتٌ من معنى كلمة الرحمة

الفصل الأول

...عام ٢٠١٦م

.كانت طفلة صغيرة لم تتجاوز السابعة من عمرها تلعب أمام المنزل مع صديقاتها

في أحد شوارع الرشاح بمطنقة الخصوص

ذات ضفيرتين طويلتين بلون الليل، وعينين سوداويين واسعتين لا تستقران في مكان؛ تلهوان قليلًا، ثم تتسللان .بنظراتٍ قلقة نحو آخر الشارع، كأنهما تنتظران حدثًا بالغ الأهمية لا يعرفه سواها

و في ملامحها شيء نادر ...براءة لا تشبه براءة الأطفال العادية، ورحمة رقيقة تفيض من وجهها الصغير، حتى .ليخيّل لمن يراها أن قلبها خُلق أنقى من أن يعرف القسوة يومًا

.وكانت ترتدي فستانها الوردي المحبب إلى قلبها، تتحرك به بخفةٍ وعفوية، كزهرة صغيرة تتراقص مع الهواء

.وفجأة، انقطعت عن اللعب دون كلمة، وانطلقت تركض مسرعة نحو نهاية الشارع، كأن قلبها سبق خطواتها

.لقد جاء والدها عائدًا من عمله

.وما إن رأته حتى أشرقت عيناها بفرحٍ طفولي خالص

وضع الرجل الأكياس التي يحملها على الأرض، وفتح ذراعيه لها، فاندفعت إليه يحتضنها وتحتضنه الدنيا كلها .في تلك اللحظة

،حملها بين ذراعيه، وقبّلها بحنانٍ أبوي دافئ، ثم أمسك بالأكياس بيد، وبيدٍ أخرى احتفظ بطفلته قريبة منه .وعادا معًا إلى شقتهما الصغيرة، بينما ظل الشارع محتفظًا بأثر تلك اللحظة الإنسانية البسيطة ...النقية

كانت رحمة تعشق والدها عشقًا يفوق وصف الكلمات، وكان هو الآخر يغمرها بحنانٍ خاص، حتى بدت مكانتها في قلبه كمكانة يوسف في قلب يعقوب؛ قريبة إلى الروح، عزيزة إلى الحد الذي يثير غيرة من حولها دون قصد.

وكان يدللها كثيرًا، يبتسم لكل كلمة تقولها، ويضعف أمام دموعها الصغيرة

كان والدُ رحمة رجلًا من ذلك النوع الذي لا يلفت النظر في الشوارع، لكنه يترك أثرًا عميقًا في قلب من يعرفه. لم يكن وسيمًا بالمعنى الذي تتحدث عنه النساء كثيرًا، ولم يكن يملك تلك الأناقة المتكلَّفة التي تصنعها الأموال. لكنه كان يملك شيئًا أهم ...راحة نادرة يشعر بها كل من يقترب منه.

كان هادئًا بصورة تُشبه الوقار، كأن الحياة علّمته أن الضجيج لا يصنع قيمة الرجل.

عيناه واسعتان، فيهما حزنٌ خفيف قديم، لكنه حزنٌ دافئ لا يُخيف، بل يجعلك تشعر أنه يفهم آلام الناس دون أن يتكلموا .وكانت رحمة تحب عينيه أكثر من أي شيء آخر، لأنهما كانتا تُشعرانها دائمًا أنها محمية، مهما كانت الدنيا قاسية.

وجهه لم يكن خاليًا من التجاعيد، لكنها كانت تجاعيد رجلٍ عاش عمره وهو يُقاتل بصمت من أجل من يحب.

وحين يبتسم، تختفي قسوة ملامحه فجأة، ويبدو كأبٍ خلقه الله ليكون ملجأً لا رجلًا عاديًا.

كان يرتدي ملابسه البسيطة بعناية، ويضع عطره الهادئ الذي كانت رحمة تعرف حضوره من رائحته قبل أن تراه .وكانت تشعر، كلما عاد إلى البيت آخر النهار، أن الأمان نفسه قد عاد معه.

لم يكن يُكثر من الحديث، لكنه إذا سألها:

"عاملة إيه يا رحمة؟" ـــ

".تشعر أن السؤال يحتويها كلها، وكأنه يقول لها دون كلمات" :أنا هنا ...فلا تخافي

.وكانت رحمة تُحبه بطريقةٍ لم تستطع تفسيرها يومًا

.لم تكن تراه أبًا فقط، بل كانت تراه الحياة حين تصبح رحيمة، والبيت حين يتحول إلى قلبٍ كبير

أما والدتها، فكانت تضيق أحيانًا بذلك التعلق الكبير بينهما، ويزداد ضيقها كلما نظرت إلى الحي الشعبي
.الذي يعيشون فيه

:ولم يكن يمر حديث بينها وبين زوجها إلا وينتهي بالسؤال ذاته

إلى متى سنظل هنا؟ _

متى نرحل من هذه المنطقة؟ _

وكان الزوج يسمع كلماتها فيصمت قليلًا، ثم يتنهد بضيق يعرفه جيدًا، قبل أن يقول بصوتٍ هادئ يخفي
:عناده

.الحمد لله ...ربنا أكرمنا ولدينا ما يكفينا، لكنني لا أريد الرحيل ـــ

.هذا المكان وُلدت فيه، وكبرت بين شوارعه، وهنا عملي وأصدقائي، وهنا عشت عمري كله

.صحيح أن أهلي رحلوا ...رحمهم الله، لكنني لا أستطيع أن أترك المكان الذي يحمل روحي

:ثم أضاف بنبرة حاسمة أنهت الحديث كعادتها

.عندما أموت، افعلوا ما تشاؤون ...أما الآن فلن أرحل ـــ

:وبعدها نهض متعبًا وقال

.سأذهب لأنام —

.دخل غرفته حزينًا، وقد انطفأت شهيته للكلام والطعام معًا

وكانت رحمة تراقبه بعينيها الصغيرتين الممتلئتين بالأسى، تشعر بثقل الحزن الذي يسكن قلبه كلما ضغطت .عليه والدتها بهذا الحديث

.وحين جلس الجميع إلى الطعام، لم تمد يدها إلى شيء

.رفضت أن تأكل، كأنها تشارك والدها صمته وحزنه دون أن تدري

عندها شعرت الأم بالضيق، وساد الصمت أرجاء البيت، حتى إنها توقفت عن إكمال تجهيزات البيت التي .كانت ترتبها، وبقي المنزل ساكنًا على غير عادته، كأن الكلمات التي قيلت منذ قليل ما زالت معلقة في الجدران

كانت رحمة تُدرك مدى تعلّق والدها بالمنطقة التي وُلد فيها وكبر بين شوارعها وبيوتها؛ فهناك ترك طفولته .وذكرياته وأصدقاء عمره، وهناك عرف الناس الذين صاروا جزءًا من حياته

أما والدتها، فلم تكن ترى في الأمر كله إلا رأيها هي، ورغبتها وحدها؛ لا يعنيها مكان، ولا ذكريات، ولا .أهل، ولا جيران، وكأن العالم يبدأ منها وينتهي عندها

الفصل الثاني

وكان والد رحمة يجلس بين الحين والآخر مع أصدقائه القدامى، يتبادلون أحاديث العمل وأخبار الحياة، ثم ينتقل الحديث تلقائيًا إلى شؤون البلد وما يسمعونه في المقهى من حكايات وأخبار.

كانت تلك الجلسات جزءًا أصيلًا من حياته، اعتادها كما اعتاد أهل المنطقة وبساطتهم ودفء علاقتهم ببعضهم البعض.

لكن هذه الأحاديث كانت كثيرًا ما تنتهي بخلاف بينه وبين زوجته، فتعلو نبرات الضيق في البيت، ويثقل الصمت بعد ذلك على الجميع.

وكانت رحمة تشعر بالانزعاج من والدتها؛ لأنها تعرف جيدًا مدى تعلق زوجها بالمكان وأهله، ومع ذلك لم تكف يومًا عن إثارة هذا الموضوع.

وكان الخوف يسكن قلب رحمة على والدها.

كانت تعلم أن صحته لم تعد تحتمل كل هذا الإرهاق؛ فقد أنهك المرض قلبه، وأصبحت ملامحه تحمل تعبًا لا يخفى على أحد.

لذلك كانت تخشى، في أعماقها، أن يأتي يوم تفقد فيه والدها فجأة، فتجد نفسها وحيدة أمام هذا الفراغ الكبير.

كانت كلُّ لحظةٍ يشتدُّ فيها المرض على والدها، تُشبه في قلب رحمة لحظةَ موتٍ صغيرة.

كانت تشعر أن الألم ينهش روحها هي، لا جسده وحده.

فقد كان أبوها العالم الذي احتمت به منذ فتحت عينيها على الحياة؛ فيه الرحمة، والحب، والأمان، والسلام

.ثم جاء ذلك اليوم الذي خشيتْه طويلًا

.مرض والدها فجأة، واضطرب قلبها كطائرٍ مذعور

.أسرعوا به إلى المستشفى، وكانت رحمة تتشبث بالأمل كما يتشبث الغريق بخشبةٍ صغيرة وسط بحرٍ هائج

.كانت تراقب وجهه الشاحب، وتنتظر منه كلمةً واحدة تطمئنها، نظرةً واحدة تقول لها إنه لن يتركها وحيدة

.لكن الموت كان أسرع من دعواتها

.رحل والد رحمة، وفي اللحظة التي أُغلقت فيها عيناه، شعرت أن الحياة كلها أُطفئت دفعةً واحدة

.اسودَّ العالم في عينيها، وكأن الألوان قد انسحبت من الدنيا إلى الأبد

.ومنذ تلك اللحظة، أدركت أنها لن ترى الحياة كما عرفتها من قبل

...نسيت الضحك

...ونسيت الفرح

.ونسيت الأمان الذي كان يملأ قلبها كلما سمعت صوته

.لم تبكِ كفتاة فقدت أباها، بل كامرأة سقط منها السقف الذي كان يحمي روحها من العالم

.نسيت دفء العائلة، وأحاديث المساء، والونس الذي كان يحيط بها كضوءٍ خافت في ليالٍ طويلة

.حتى الأشياء الصغيرة التي كانت تُحبها، فقدت معناها فجأة، وكأن روحها انسحبت منها مع رحيل أبيها

.كانت تتمنى، في لحظات ضعفها، لو أنها ماتت هي وبقي هو حيًّا

.حتى حزنها، بعد موت أبيها، ظلَّ بريئًا

كانت تتألم بصدق الأطفال؛ تبكي حتى تتعب، ثم تنظر إلى باب البيت لحظةً طويلة كأنها ما زالت تنتظر أن يعود.

لم تعرف كيف تتظاهر بالقوة، ولا كيف تُخفي انكسارها خلف ابتسامةٍ مصطنعة.

كانت واضحة كالماء، شفافة إلى درجة أن الحزن كان يظهر في عينيها قبل أن تنطق به.

فقد كان بالنسبة إليها الماء والهواء والحياة نفسها.

وكيف لإنسانٍ أن يعيش بلا هواء؟

وذبل وجهها الجميل شيئًا فشيئًا.

بهتت ملامحها، واكتسى وجهها بحزنٍ عميق، حتى بدا الألم وكأنه صار جزءًا من تفاصيلها.

كانت تتألم مع كل نفسٍ تتنفسه، وتبكي كثيرًا في صمت، لكن أمها لم تحتوِ حزنها كما كانت تتوقع.

كانت رحمة تشعر بوحدةٍ قاسية، وكأن الجميع يطلب منها أن تتجاوز الفقد بينما هي ما زالت غارقة فيه حتى عنقها.

الفصل الثالث

،وحدها جدتها اقتربت منها بحنانٍ هادئ، وربتت على قلبها المكسور قبل كتفها، و كانت الجدة نقيّة الروح تمنح من قلبها بلا انتظار مقابل، وكأنها خُلقت لتزرع الطمأنينة فيمن حولها .أما ابنتها، فبدت على النقيض تمامًا؛ .مشغولة بذاتها، لا ترى إلا صورتها وانعكاس جمالها الخارجي، كأنها تحيا داخل دائرة ضيقة لا تتسع لغيرها

انشغلت بالمظهر والزينة أكثر من المعنى والجوهر، فابتعدت شيئًا فشيئًا عن دفء العطاء الذي كانت تعيشه .أمها .وهكذا، وقف الزمن بين جيلين :جيلٌ يرى الحياة قلبًا وروحًا، وجيلٌ آخر يراها مرآةً وصورة

:وقالت لها بصوتٍ يشبه الدعاء

.يا ابنتي ...لا تتركي الحزن يسرق عمركِ كله —

.والدكِ كان يحب ابتسامتك، فلا تحوّلي حياته في قلبكِ إلى قبرٍ تعيشين داخله

.أفيقي لنفسك ...وتحرري من هذا الألم، حتى يخف عنكِ وجع الروح

،سمعت رحمة كلمات جدتها، لكنها لم تستطع يومها أن تجيب .كانت فقط تنظر إلى الفراغ بعينين مُتعبتين .كأنها ما زالت تبحث عن والدها في كل شيء حولها

.حتى حزنها، بعد موت أبيها، ظلَّ بريئًا

كانت تتألم بصدق الأطفال؛ تبكي حتى تتعب، ثم تنظر إلى باب البيت لحظةً طويلة كأنها ما زالت تنتظر أن .يعود

.لم تعرف كيف تتظاهر بالقوة، ولا كيف تُخفي انكسارها خلف ابتسامةٍ مصطنعة

.كانت واضحة كالماء، شفافة إلى درجة أن الحزن كان يظهر في عينيها قبل أن تنطق به

.حتى حزنها، بعد موت أبيها، ظلَّ بريئًا

كانت تتألم بصدق الأطفال؛ تبكي حتى تتعب، ثم تنظر إلى باب البيت لحظةً طويلة كأنها ما زالت تنتظر أن .يعود

.لم تعرف كيف تتظاهر بالقوة، ولا كيف تُخفي انكسارها خلف ابتسامةٍ مصطنعة

.كانت واضحة كالماء، شفافة إلى درجة أن الحزن كان يظهر في عينيها قبل أن تنطق به

.كانت جدتها تُحاول، بكل ما تبقى في قلبها من حنان، أن تنتشلها من ذلك الغرق البطيء

كانت تقول لها دائمًا إن الحزن إذا طال، تحوّل إلى سجنٍ يأكل الروح، وإن عليها أن تقوم، أن تُفيق، أن .تعمل وتنهض وتخلع ذلك الرداء الأسود الذي التفَّ حول قلبها منذ مات أبوها

.لكن رحمة لم تكن تعرف كيف ينهض الإنسان من داخله وهو مكسور

.وكان أكثر ما يؤلمها أن أمها لم تسأل عنها يومًا كما كانت تتمنى

لم تربت على حزنها، ولم تقترب من وحدتها، حتى شعرت رحمة مع الوقت أن بينهما مسافاتٍ أكبر من جدران .البيت نفسه

وظلت تتنقل بين بيت جدتها وبيت أمها، كأنها طفلة بلا مكانٍ ثابت، تبحث عن دفءٍ ضاع منها ولن .يعود

الفصل الرابع

ومرت سنواتها الأولى بطيئة وثقيلة، حتى انتهت من المرحلة الابتدائية، بينما كانت الحياة تزداد قسوةً في وجهها يومًا بعد يوم.

وكانت تشعر أن الدنيا تُغلق أبوابها أمامها بابًا بعد باب، بلا رحمة، كأن اسمها وحده هو الشيء الوحيد الرحيم في حياتها.

حزنت على أبيها حتى أنهكها الحزن، ثم حزنت على جدتها، المرأة الوحيدة التي كانت تمنحها بعض الطمأنينة، ثم بدأت تحزن على نفسها أيضًا ...على تلك الطفلة التي كانت تضحك بسهولة، وتُصدق الحب، وتنتظر الخير من الجميع.

وكان بداخلها أملٌ صغير، ضئيل جدًا، يشبه خرم إبرة يتسلل منه الضوء إلى غرفةٍ مظلمة.

لكنها شعرت يومًا أن ذلك الضوء انطفأ هو الآخر، وأن الفتحة الأخيرة التي كانت تتنفس منها روحها قد أُغلقت تمامًا، فلم يعد هناك مخرج، ولا نافذة، ولا حتى وهم نجاة.

وعاشت مع أمها تحت سقفٍ واحد، لكنهما كانتا كغريبتين جمعتهما الضرورة لا المشاعر.

كل واحدةٍ منهما تعيش في عالمها الخاص، تمرُّ الأخرى بجوارها بصمتٍ بارد، دون سؤالٍ حقيقي، أو حنانٍ يشبه حنان الأمهات.

وكانت رحمة، كل ليلة، تنام وهي تشعر أن البيت لم يعد بيتًا، بل مكانًا واسعًا وباردًا، يضم جسدين وروحين لا تعرف إحداهما طريق الأخرى.

ومع الأيام، دخلت رحمة المرحلة الإعدادية؛ تلك المرحلة الغامضة التي تعبر فيها الفتاة من الطفولة إلى شيءٍ آخر لا تفهمه تمامًا.

بدأت ملامحها تتغير ببطء، وكأن جسدها يعلن دخولها عالم النساء قبل أن تستعد روحها لذلك.

أشياء صغيرة كانت تكبر، وأحاسيس جديدة كانت تولد داخلها دون تفسير، وشهور تمرُّ عليها لأول مرة بقلقٍ وخجلٍ وأسئلةٍ كثيرة لا تجرؤ على البوح بها.

لكن رحمة، رغم كل ما كان يتغير فيها، بقيت كما هي من الداخل ...طفلة بريئة تحمل في قلبها حزنًا أكبر من عمرها.

وكانت في أمسِّ الحاجة إلى أمها.

كانت تحتاج أن تقترب منها، أن تشرح لها ما يحدث، أن تُطمئن خوفها المرتبك، وأن تحتوي ارتباك أنوثتها الأولى مثلما تفعل الأمهات مع بناتهن في تلك السن الحساسة.

كانت تحتاج كلمةً حنونة، أو حضنًا دافئًا، أو حتى نظرةً تشعرها أنها ليست وحدها في مواجهة الحياة.

لكن أمها بقيت بعيدة، بعيدة إلى درجة أن رحمة كانت تشعر أحيانًا أن الموت لم يأخذ أباها وحده، بل أخذ أمها منهما أيضًا، وأبقى فقط امرأةً تسكن معها البيت.

ولهذا، عاشت رحمة تتربى على بقايا الأرواح التي أحبتها يومًا؛ على حنان أبيها الذي ما زال عالقًا في ذاكرتها، وعلى نصائح جدتها الراحلة، وعلى كلماتٍ قديمة كانت تسمعها من أمها قبل أن تصبح غريبة عنها. كانت تكبر وحدها، وتتعلم وحدها، وتخاف وحدها، كأن الحياة دفعتها مبكرًا إلى النضج دون أن تمنحها حق الاحتماء.

:وكانت تكتشف، يومًا بعد يوم، تلك الحقيقة القاسية التي لا يقولها أحد بصوتٍ واضح

.أن القرب الحقيقي لا يُقاس بالأجساد، بل بالقلوب

.فقد يعيش شخصان تحت سقفٍ واحد، بينهما خطوات قليلة، بينما تفصل روحيهما مسافات لا تنتهي

.وقد يرحل إنسانٌ بالموت، لكنه يظل أقرب إلى قلبك من كل الأحياء

كانت تشكر الله كل صباح على ساعات المدرسة؛ هناك فقط كانت تشعر أن الهواء أخفّ، وأن قلبها يستطيع أن يهدأ قليلًا .وما إن يقترب موعد العودة إلى البيت حتى يضيق صدرها، كأنها تُساق إلى سجنٍ تعرف .جدرانه جيدًا، وتحفظ زواياه وتفاصيله عن ظهر قلب

،كان البيت يحمل روح أبيها في كل شيء؛ في مقعده الخالي، في صوته الذي ما زالت الجدران تحتفظ بصداه .وفي الأشياء الصغيرة التي كان يفرح بها أو يحزن منها

وكانت تتذكر أحاديث أمها الطويلة عن ترك البيت، وكأنها طعنات خفية تتكرر كل يوم، تزيد خوفها وتمزق .ما بقي في قلبها من طمأنينة

،كانت بحاجة إلى يدٍ تنتشلها بعيدًا عن ذلك المكان، رغم شوقها إليه وحبها له؛ فذلك البيت، على قسوته .كان آخر ما تبقى من أبيها

لكن الأيام لم تمهلها لتلتقط أنفاسها، ولم تتركها الظروف تستريح من أحزانها القديمة، حتى جاءها الخبر الذي .هزّ روحها من جديد

«.قالت أمها بهدوءٍ بارد» :سأتزوج

الفصل الخامس

.وفي تلك اللحظة، شعرت وكأن الحزن عاد إليها بنفس القسوة التي عاد بها يوم وفاة أبيها

اختلطت الذكريات بالخوف، وامتلأ قلبها بوحدةٍ لم تعرفها من قبل، كأن الحياة تُصرّ أن تنتزع منها كل ما .أحبّته، الواحد تلو الآخر

.تلقّت رحمة الصدمة بقلبٍ مثقلٍ بالحزن والوجع

حاولت أن تتماسك، وأن تضغط على نفسها لتتحمّل ما تمرّ به، وظلّت تقاوم ألمها في صمت، لكن والدتها .لم تُمهلها فرصةً للراحة

كانت تشعر بضيقٍ من وجودها في المنزل، حتى أصبح البيت الذي نشأت فيه مكانًا يثقل روحها بدلًا من أن .يحتويها

.مضت الأيام، ثم الأسابيع، ثم الشهور، ورحمة تفكّر في الأمر من كل جانب

كانت تدرك أن قرار الرحيل ليس سهلًا، لكنها كانت تشعر في أعماقها أن البقاء أصبح أكثر قسوة من .المغادرة

.وبعد صراعٍ طويل مع نفسها، اتخذت قرارها أخيرًا :أن تترك المنزل لوالدتها وتمضي في طريقها وحدها

.ولم تفكّر كثيرًا في التكاليف أو المشقّة أو متاعب الحياة القادمة

.كانت تلك الأمور تبدو لها بسيطة أمام مرارة العيش في مكانٍ تشعر فيه بأنها غير مرغوب فيها

.كان همّها الوحيد أن تبتعد عن ذلك الألم اليومي الذي أنهك قلبها وأفقدها طمأنينتها

ولأن والدها كان رجلًا محبوبًا بين أهل المنطقة، ولأن الجميع كانوا يعرفون ظروفها وما تمرّ به، مدّ لها كثيرون يد العون والمساندة.

وبعد محاولاتٍ عدة، وجدت غرفةً متواضعة للسكن لا تبعد سوى سبع دقائق عن منزل أسرتها.

لم تكن كما كانت تحلم، لكنها كانت مساحةً صغيرة تمنحها شيئًا من الكرامة والهدوء.

ثم بدأت رحلة البحث عن عمل.

كانت تعلم أنها أصبحت مسؤولة عن نفسها بالكامل، خاصة أن والدتها لم تمنحها جنيهًا واحدًا يساعدها على بدء حياتها الجديدة.

وفي لحظات التعب واليأس، كانت تتذكر كلمات جدتها التي طالما أوصتها بالصبر والاعتماد على النفس، فتستمد منها قوةً تدفعها إلى الاستمرار.

ظلّت تبحث من مكانٍ إلى آخر، تسأل هنا وهناك، حتى وجدت فرصة عمل في أحد محالّ الملابس بالمنطقة نفسها.

لم يكن العثور على عمل أمرًا يسيرًا؛ فالفرص قليلة، ومعظم الأعمال تتطلب مؤهلاتٍ تعليمية لا تملكها. فلم يكن نصيبها من التعليم يتجاوز الصف الثاني الإعدادي. ومع ذلك، تمسّكت بتلك الفرصة بكل ما أوتيت من عزيمة، فقد كانت بالنسبة إليها بداية طريق جديد، وطوق نجاةٍ يساعدها على الوقوف على قدميها من جديد، مهما كانت الصعوبات التي تنتظرها في الأيام القادمة.

كان قلب رحمة لا يزال مثقلًا بالجراح، لكنها للمرة الأولى منذ زمنٍ طويل شعرت بأنها تملك قرار حياتها، وأن المستقبل، رغم غموضه، قد يحمل لها ما هو أرحم من الماضي.

.وظلت رحمة تعمل في المحل، بينما كانت الذكريات تتسلل إلى قلبها بين الحين والآخر

،تذكرت والدها، وتذكرت سنوات كفاحه الطويلة، وكيف كان يخرج كل صباح حاملاً هموم الحياة فوق كتفيه
.ثم يعود في المساء مبتسمًا من أجلها، يخفي تعبه خلف نظرة حانية وكلمة طيبة

.شعرت للمرة الأولى أنها لم تدرك حجم ما كان يتحمله إلا بعد رحيله

ففي حياته كانت تنعم براحة لم تعرف قيمتها إلا حين فقدتها، وكانت تعيش مدللة في ظل حبه ورعايته، لا
.تحمل همًّا ولا تشغل بالها بقسوة الأيام

.أما الآن، فقد أصبحت تواجه الحياة وحدها، وتتعلم دروسها الصعبة يومًا بعد يوم

:وتذكرت فجأة تلك الكلمات التي خرجت من أعماق قلبها يوم وفاته

".لن أرى يومًا جميلًا بعدك يا أبي"

.تنهدت في صمت، ثم هزت رأسها وكأنها تطرد هذه الأفكار بعيدًا

فما جدوى الاستسلام للحزن؟

وما الذي ستغيره الذكريات؟

.كان عليها أن تركز في عملها، وأن تمضي في طريقها مهما كانت الصعوبات

.وبالفعل ألقت بنفسها في العمل بكل طاقتها

كانت تستقبل السيدات بابتسامة هادئة، وتتحدث إليهن بحرية ولطف، وتستمع إلى ما يحتجنه باهتمام
.حقيقي

.وكلما طلبت إحداهن شيئًا، سارعت رحمة إلى تلبيته وكأنها تفعل ذلك لصديقة مقربة لا لزبونة عابرة

.ومع مرور الوقت أصبحت وجهًا مألوفًا ومحبوبًا داخل المحل

.فقد كانت تمتلك ذوقًا رفيعًا وبديهة سريعة، وتعرف كيف تختار لكل امرأة ما يناسبها

كانت تدرك أن لكل جسد تفاصيله الخاصة، وأن ما يليق بامرأة قد لا يليق بأخرى، لذلك كانت ترشدهن .إلى الملابس التي تبرز جمالهن وتمنحهن الثقة والراحة في آن واحد

.ولهذا السبب أحبها الجميع

.لم تكن الزبونات يأتين من أجل الملابس وحدها، بل من أجل رحمة أيضًا

.كن يثقن برأيها، وينتظرن نصيحتها، ويشعرن بالاطمئنان حين تساعدهن في الاختيار

.حتى إن كثيرات منهن أصبحن يفضلن الشراء من هذا المحل تحديدًا بسبب وجودها فيه

وبفضل اجتهادها وإخلاصها ازدهر العمل بصورة ملحوظة، وارتفعت المبيعات ارتفاعًا كبيرًا، وأصبح المحل .أكثر نشاطًا مما كان عليه من قبل

ومع ذلك ظل راتبها كما هو، لم يزد جنيهًا واحدًا، وكأن كل ما قدمته من جهد وإخلاص ونجاح لم يكن .كافيًا ليجعل أصحاب المحل ينظرون إليها نظرة مختلفة

.وكان هذا أكثر ما يؤلمها؛ أن ترى ثمار تعبها تنمو أمام عينيها، بينما نصيبها منها لا يزال ثابتًا في مكانه

وفي أحد الأيام اشتد الإرهاق على رحمة حتى شعرت أن جسدها لم يعد قادرًا على مواصلة الركض خلف .متطلبات الحياة بالوتيرة نفسها

لم تكن في حاجة إلى الراحة الجسدية فحسب، بل كانت تحتاج أيضًا إلى من يساندها معنويًا، ويخفف عنها .وطأة الوحدة، ويعينها على مواجهة الأعباء المادية التي كانت تتزايد يومًا بعد يوم

.وبينما كانت مستلقية تستعيد أنفاسها، أخذت تفكر في مستقبلها

.أدركت أن راتبها من المحل، مهما بذلت من جهد، لم يعد كافيًا لتلبية أبسط احتياجاتها

.كانت تحسب مصروفاتها بدقة، ثم تكتشف في كل مرة أن ما تحصل عليه يكاد يكفيها بالكاد

.كانت تحرم نفسها من أشياء كثيرة

لم تعد تشتري الفاكهة إلا نادرًا، ولا تتذوق الحلوى إلا في المناسبات القليلة، أما الطعام الجيد فقد أصبح رفاهية .لا تملكها دائمًا

وحتى ملابسها كانت تهملها، فلا تشتري جديدًا إلا عند الضرورة القصوى، وكأن الحياة قد اختزلت ألوانها .كلها في ذلك السواد الذي اعتادت ارتداءه منذ وفاة والدها

الفصل السادس

.لذلك قررت أن تبحث عن عمل إضافي يساعدها على مواجهة أعباء الحياة

،وفكرت أيضًا أن تواصل تعليمها بطريقة أقل تكلفة، فتؤدي امتحانات الصف الثالث الإعدادي بنظام المنازل .ثم تكمل الدبلوم بالطريقة نفسها، حتى توفر ما تستطيع من النفقات

كانت الأفكار تتزاحم في رأسها بلا توقف، وكل فكرة تحمل معها همًا جديدًا وحلمًا صغيرًا تحاول التمسك .به

وفي إحدى المرات، بينما كانت تقف خلف منضدة المحل منشغلة بترتيب بعض الملابس، دخل رجل في :منتصف العمر وألقى التحية

.مساء الخير —

:رفعت رأسها وردت بأدب

.مساء النور —

:سألها الرجل

هل حضر الأستاذ راضي؟ —

:أجابت

.لا، لم يأتِ بعد —

ومتى سيأتي؟ ـــ

.بعد قليل إن شاء الله ـــ

:هز الرجل رأسه وقال

.عندما يأتي، أخبريه أن الأستاذ سعد سأل عنه ـــ

.حاضر ـــ

.ثم استأذن وانصرف

.لم تعر رحمة الأمر اهتمامًا كبيرًا، وعادت إلى عملها كالمعتاد

.لكن بعد دقائق قليلة عاد الرجل إلى المحل مرة أخرى

.بدا وكأنه تذكر أمرًا مهمًا أو أراد الاستفسار عن شيء آخر

.وخلال حديثه مع صاحب المحل علم أن رحمة تبحث عن فرصة عمل إضافية

عندها بدا عليه الاهتمام، إذ كانت زوجته بحاجة إلى من يساعدها في بعض أعمال المنزل، وكانت الأسرة .تبحث منذ فترة عن فتاة أمينة وخلوقة يمكن الاعتماد عليها

نظر إلى رحمة نظرة متفحصة، و عرض عليها الأمر

أما رحمة فلم تكن تعلم أن هذه المصادفة العابرة، التي بدأت بسؤال عن الأستاذ راضي، قد تفتح أمامها بابًا .جديدًا لم تكن تتوقعه

.وفرحت رحمة بذلك العمل، رغم أنها لم تكن تراه مناسبًا لها تمامًا

.لكنها كانت في حاجة إلى المال، حاجة دفعتها إلى القبول دون كثير من التفكير

.ففي بعض الأحيان تكون قسوة الواقع أقوى من المنطق، وتصبح الضرورة أشد وقعًا من الكرامة نفسها

.كانت تفعل ذلك من أجل أمها، رغم أن معاش والدها كان يكفيها لو أنها حصلت عليه

.وكانت تظن أن أستاذ سعد لم يساعدها إلا وفاءً لذكرى أبيها

وفي كل موقف كانت تجد صورة أبيها تلوح أمام عينيها؛ تذكرت تدليله لها، وحنانه الذي كان يحيطها به، ثم .شعرت بمرارة الفقد التي لم تغادر قلبها يومًا

:وقالت في نفسها بأسى

...بجد اللي ربنا بيحبه بيريحه من متاعب الدنيا"

إمتى بقى يا رب؟

إمتى تاخدني زي ما أخدت بابا؟

.أنا مش عايزة أعيش تاني ...كفاية كده

"...حتى جدتي يا رب أخدتها، وهي الوحيدة اللي كانت كويسة معايا .ارحمني يا رب

وضعت يدًا فوق الأخرى، واستسلمت كعادتها لواقعها المؤلم، ثم اتجهت إلى محل العمل، وبعد أن أنهت ما .عليها، ذهبت إلى منزل الأستاذ سعد

سعد رجل يبلغ من العمر 44 عامًا، صاحب محل وورشة عجل .قصير القامة وكان رفيع البنية، وكان شخص خبيث جداً ويستغل أي موقف او شئ لصالحة

.طرقت رحمة الباب في تردد

:فتح لها الأستاذ سعد وقال

".. "مساء الخير

:فأجابت بخفوت

".. "مساء النور

".. "اتفضلي

:دخلت بخطوات مترددة وقالت

"..... "أنا رحمة

:لكن السيدة مها قاطعتها مبتسمة

".. "آه، سعد قالي عليكي .تعالي يا حبيبتي

.جلست رحمة في صمت

وأخذت تتأمل ابنتي السيدة مها، وكيف تحيطهما أمُّهما بالرعاية والاهتمام، وكيف تتدفق كلمات الدلال من شفتيها بلا حساب.

.كانت تنظر إليهما، ثم تعود بعينيها إلى نفسها

.شعرت بوخزة حزن عميقة

:وقالت في سرها

كل البنات اللي في سني بيتمنوا ويتشرطوا في بيوتهم، وأهلهم بيدلعوهم، وبيخرجوا ويفسحوا .وأنا ...ولا"
.حاجة من ده كله

".لا دلال، ولا راحة، وكمان بشتغل وأتعب لوحدي

:لكنها رفعت عينيها إلى السماء في صمت، وهمست من أعماق قلبها

"...يا رب"

:قطع السيدة مها شرودها وهي تناديها

".. "رحمة

".. "نعم يا مدام مها

".. "بكرة هتيجيلي في نفس المعاد

".. "حاضر

:ابتسمت السيدة مها وقالت

.. "أنا مبسوطة منك جدًا

".طلعتي أحسن بكتير من كل الكلام اللي سمعته عنك

:ارتبكت رحمة وقالت بخجل

".. "ربنا يخليكي ...شكرًا

:ثم تناولت السيدة مها كيسًا وقدّمته لها

".. "اتفضلي

:نظرت إليه رحمة في دهشة

". "إيه ده يا مدام مها؟

".. "ده أكل ليكي

:هزت رأسها بسرعة وقالت

".. "لا، شكرًا

:فقالت السيدة مها بنبرة أمومية حازمة

".. "اسمعي الكلام وخديه

.شعرت رحمة بحرج شديد، وحاولت الاعتذار أكثر من مرة، لكن إصرار السيدة مها كان أقوى من رفضها

.وفي النهاية أخذت الكيس وهي تتمتم بكلمات الشكر

.ثم استأذنت وانصرفت

الفصل السابع

خرجت إلى الشارع، والكيس بين يديها، بينما كان قلبها مثقلًا بمشاعر متناقضة؛ امتنان دافئ لمن أحسن إليها، وحزن قديم لا يزال يسكنها كلما تذكرت أن الحياة التي تتمناها كانت قد رحلت مع أبيها.

عادت رحمة إلى غرفتها الصغيرة فوق سطح البناية؛ تلك الغرفة المتواضعة المجاورة لأبراج الحمام.

كان قد منحها إياها رجلٌ مسنّ عرف ظروفها القاسية، وأحب والدها وأهلها، فرأى أن يخفف عنها بعضًا مما أثقل كاهلها.

كانت الغرفة ضيقة وبسيطة إلى حدٍّ كبير، لكن رحمة كانت تراها ملاذها الوحيد من ضجيج الحياة وقسوتها.

هناك، بعيدًا عن أعين الناس، كانت تسمح لدموعها أن تنزل دون خوف أو خجل.

ومضت أيامها على وتيرة واحدة لا تتغير؛ بين العمل في المحل، والذهاب إلى منزل السيدة مها، ثم العودة ليلًا إلى غرفتها فوق السطح.

حياةٌ رتيبة، لكنها لم تكن مريحة.

بل كانت حياةً فرضتها المسؤولية المبكرة على فتاة لم تعرف من طفولتها إلا القليل.

كانت تشعر أحيانًا أنها تُساق في طريق الحياة كما يُساق حيوانٌ أنهكه التعب، يسير لأنه لا يملك خيارًا آخر غير السير.

كانت تستيقظ مبكرًا، وتعمل لساعات طويلة، وتعود منهكة الجسد والروح، ثم تستيقظ في اليوم التالي لتبدأ الدورة نفسها من جديد.

ورغم قسوة الحياة، كانت السيدة مها تمثل الاستثناء الوحيد في عالم رحمة.

كانت تعرف معنى الرحمة، وتفهم معنى الإنسانية، وتمنحها من الاهتمام ما يجعلها تشعر، ولو للحظات قليلة، أنها ما زالت إنسانة تستحق الحنان.

وكانت رحمة تشعر أحيانًا أنها مختلفة عن كل ما حولها.

ففي عالم امتلأ بالقسوة والمصالح والحسابات، ظلت هي تحتفظ بقلب نقيّ لم تلوثه الأيام بعد.

كانت أشبه بثوب أبيض وسط عالمٍ ارتدى السواد؛ ساذجة أحيانًا، وبريئة أكثر مما ينبغي، تصدق الناس بسرعة، وتلتمس لهم الأعذار حتى عندما لا يستحقونها.

ومع ذلك، لم تحمل حياتها أي شكل من أشكال الرفاهية، ولا حتى الحد الأدنى من الحياة الكريمة التي يحلم بها أي إنسان.

كانت تعمل لساعات طويلة، وتبذل جهدًا يفوق طاقتها، لكن راتبها بالكاد يكفي احتياجاتها الأساسية.

وكان هذا الأمر يثير في نفسها الكثير من التساؤلات.

كيف يمكن لشاب أو فتاة في بداية العمر أن يعملوا طوال اليوم، ثم يجدوا أنفسهم عاجزين عن تأمين أبسط متطلبات الحياة؟

كيف لمن يسكن بعيدًا عن عمله أن يدفع تكاليف المواصلات والطعام والاحتياجات اليومية من راتبٍ يكاد ينتهي قبل منتصف الشهر؟

كانت الأسعار ترتفع بلا توقف، وكل شيء أصبح باهظ الثمن؛ الطعام، والملابس، والعلاج، وحتى أبسط الضروريات.

وأحيانًا كانت رحمة تنظر حولها فتشعر أن الشيء الوحيد الرخيص في هذا العالم هو الإنسان نفسه.

فالناس يعملون بلا رحمة، ويبذلون أعمارهم وجهدهم وصحتهم، ثم لا يحصل كثير منهم إلا على حياة عادية، بل أقل من عادية أحيانًا.

وكانت تسمع كثيرًا عن الأرباح الكبيرة التي تحققها بعض المؤسسات والشركات، وعن الأموال التي تدور في الأسواق، فتتساءل في صمت:

أين يذهب كل هذا؟

ولماذا يبقى العامل البسيط دائمًا هو الحلقة الأضعف؟

كانت أسئلة تتردد في أذهان الكثيرين، وما زالت الإجابات عنها محل نقاش طويل لا ينتهي.

أما رحمة، فلم تكن تفكر في الاقتصاد أو الحسابات المعقدة بقدر ما كانت تفكر في شيء واحد فقط:

أن تستطيع العيش بكرامة.

ولعل براءتها الشديدة كانت السبب في تعلق السيدة مها بها يومًا بعد يوم.

.فقد أحبتها كما لو كانت ابنة من بناتها، وأصبحت تلاحظ خجلها، وصبرها، وطريقتها المهذبة في الحديث

فكانت مدام مها فتاة رقيقة وخلوقة، تتمتع بذوق رفيع وقلب طيب، وتتميز بشخصية جذابة وحضور أنيق .يجعلها محبوبة بين الجميع

.وكان زوج السيدة مها يمنح رحمة أحيانًا بعض المال دون مناسبة

.فتأخذه في حيرة وتساؤل

.كانت تشعر بالامتنان، لكنها لا تفهم السبب الحقيقي وراء هذا الكرم

.ومع مرور الوقت اعتادت الأمر، خاصة أنها لم ترَ يومًا أي ضيق أو اعتراض من السيدة مها

بل على العكس، كانت الأخيرة تنظر إليها بابتسامة هادئة، وكأن ما يفعله زوجها أمر طبيعي لا يستحق .التعليق

.وكان ذلك يزيد حيرة رحمة أكثر

.لكنها، كعادتها، لم تكن كثيرة الأسئلة

.كانت تكتفي بالشكر، ثم تعود إلى عالمها الصغير، حاملةً في قلبها أمنية واحدة لا تتغير

.أن يأتي يوم تشعر فيه أن الحياة لم تعد حربًا تخوضها وحدها كل صباح

الفصل الثامن

.وذات يوم، تلقت رحمة اتصالًا من زوج مدام مها يطلب منها أن تأتي في يوم عطلتها

.ظنت أن هناك أمرًا مهمًا أو حاجة طارئة تخص مدام مها، وربما لم تستطع أن تخبرها بنفسها

ولأن رحمة كانت تحمل لها الكثير من الود والاحترام، لم تستطع أن ترفض طلبها، حتى وإن كان ذلك في يوم .إجازتها

.وفي صباح يوم الجمعة، توجهت رحمة إلى منزل مدام مها .وقفت أمام الباب للحظات، ثم طرقت عليه

.وما هي إلا ثوانٍ حتى فُتح الباب، فإذا بالأستاذ سعد يقف أمامها

.ارتسمت الدهشة على وجهها، لكنها سرعان ما أخفتها

.قالت :— صباح الخير

.ابتسم قائلًا :— صباح النور

ترددت قليلًا قبل أن تسأله :— مدام مها موجودة؟

.أجاب وهو يفتح الباب أكثر :— أيوه، اتفضلي ادخلي

.دخلت رحمة بخطوات حذرة

.كان هناك شعور غامض بالقلق يتسلل إلى قلبها، لكنها فضلت الصمت وجلست في هدوء

.وبعد دقائق، فكرت في الاستئذان والمغادرة

.لاحظ الأستاذ سعد اضطرابها، فقال :— اتفضلي اشربي حاجة ساقعة، الجو حر النهارده

.ثم أضاف :— استني شوية لحد ما مها تيجي، ولو تأخرت ابقي امشي براحتك

.أومأت رحمة شاكرة، ثم حاولت أن تعتذر وتغادر، لكنه لم يمنحها فرصة للكلام

.اتجه إلى الداخل وعاد سريعًا يحمل كوبًا من العصير

.قال وهو يناوله لها :— اتفضلي، اشربي

.ابتسمت في حرج وقالت :— لا، شكرًا، مش عايزة

.لكنه أصر :— ليه بس؟ ده مجرد عصير، اشربي شوية

:أمام إلحاحه، تناولت الكوب ورشفت منه رشفة صغيرة .ثم وضعته جانبًا ونهضت وهي تقول

.طيب، أنا همشي وأبقى أجيلها وقت تاني —

لكنها ما إن خطت بضع خطوات حتى شعرت بدوار شديد .تمايلت الأرض تحت قدميها، وتشوش كل شيء أمام عينيها .حاولت أن تتمالك نفسها، إلا أن جسدها لم يعد يطيعها، ولم تستطع أن تخطو خطوة أخرى.

.لم تكن رحمة تدري كم من الوقت مرّ عليها قبل أن تستعيد وعيها

.فتحت عينيها ببطء، وهي تشعر بثقل غريب في جسدها، كأنها خرجت من كابوس طويل

.حاولت أن تستوعب ما حولها، لكن نظراتها توقفت فجأة عند بقع الدم المبعثرة على ملاءة السرير

.في تلك اللحظة، تجمدت أنفاسها

حدقت في الملاءة غير مصدقة، ثم عادت تنظر إليها مرة أخرى، وكأنها تنتظر أن تختفي تلك العلامات أو .يتبدل المشهد أمام عينيها

.لكن شيئًا لم يتغير

.كانت الحقيقة واقفة أمامها بكل قسوتها

:شعرت بصدمة عنيفة اجتاحت روحها قبل جسدها، وارتجفت شفتاها وهي تهمس في انهيار

إزاي...؟ —

.ثم تتابعت الأسئلة داخل رأسها كالعاصفة

إزاي حصل ده؟ —

وإزاي بقيت بالشكل ده؟ —

إزاي الراجل اللي كنت فاكراه صاحب بيت ومحترم يعمل فيا كده؟ —

.وأخذت تردد السؤال نفسه في داخلها عشرات المرات، دون أن تجد له جوابًا

كيف؟

كيف؟

كيف؟

.لكن المصيبة لم تكن قد انتهت بعد

.فبينما كانت غارقة في صدمتها، رفعت رأسها فجأة، فوجدته جالسًا أمامها على مقعد قريب

.كان يدخن سيجارة في هدوء بارد، وينظر إليها بابتسامة أثارت في نفسها الاشمئزاز والخوف معًا

.ابتسامة رجل لم يشعر بندم، ولم يبدُ عليه أنه ارتكب جرمًا

.وكأن شيئًا لم يحدث

.ازدادت أنفاسها اضطرابًا، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة

.لم تكن تملك القوة للكلام

في صمت مرتبك، جمعت ما تبقى من ثيابها، وأعادت ترتيب طرحتها المرتجفة فوق رأسها، ثم اتجهت نحو الباب.

.لم يوقفها

.ولم تلتفت إليه

.خرجت من المنزل وكأنها تهرب من مكان يحترق

.كان وقت الظهر، والشوارع شبه خالية

.سارت بخطوات متعثرة، لا تشعر بمن حولها ولا بالطريق الذي تسلكه، حتى وصلت إلى غرفتها الصغيرة

.أغلقت الباب خلفها، ثم ألقت بنفسها فوق السرير

...وهناك

.انهارت

الفصل التاسع

.بكت كما لم تبكِ من قبل

.بكت حتى جفت دموعها

.وبكت حتى شعرت أن قلبها يتمزق بين ضلوعها

.وظلت على حالها ساعات طويلة، لا تسمع شيئًا ولا ترى شيئًا، حتى ارتفع أذان المغرب

.انتفض جسدها عند سماع صوت المؤذن

.رفعت رأسها ببطء، وكأن الصوت أعادها إلى الدنيا بعد غياب طويل

.جلست صامتة للحظات، ثم مسحت دموعها

.وفي تلك الليلة اتخذت قرارًا قاسيًا

.قررت أن تكمل حياتها

.أن تخفي جرحها في أعماقها

.وألا تخبر أحدًا بما حدث

.لا قريبًا ولا بعيدًا

.وقررت أيضًا ألا تتزوج

.أن ترضى بما كتبه الله لها، وأن تحمل ألمها وحدها

.كان قرارًا ظالمًا في حق نفسها، لكنها لم تكن ترى أمامها طريقًا آخر

.كأنها أصدرت حكمًا على روحها، ثم قبلته دون اعتراض

.لكن رغم كل ذلك، بقيت مشكلة أخرى تؤرقها

.كانت قد عقدت العزم على ترك العمل في ذلك المنزل

.غير أنها كلما تذكرت مدام مها، ازداد حزنها

.فهي لم تكن تراها مجرد صاحبة عمل

.كانت امرأة طيبة، تحبها وتحتويها وتعاملها بحنان افتقدته منذ سنوات

.وكان المال الذي تحصل عليه من هذا العمل ضروريًا لها أشد الضرورة

.ولهذا ظلت طوال الليل تقلب الأمر في رأسها البسيط الحائر

ماذا ستقول لمدام مها؟

وكيف ستترك العمل دون أن تجرح مشاعرها؟

وكيف ستواجه الأيام القادمة؟

:أسئلة كثيرة ظلت تطاردها، حتى أغمضت عينيها وهي تهمس بحرقة

.دبّرها من عندك يا رب ...أنا ماليش غيرك ـــ

.كانت رحمة جالسة غارقة في أفكارها، تحاول أن تستوعب ما يحيط بها من خوفٍ وتعبٍ وحيرة

.في تلك اللحظة، رنّ هاتفها

.كانت المتصلة مدام مها

.نظرت إلى الهاتف، لكنها لم تستطع الرد

.شعرت بأن الكلمات هربت منها، وأن مجرد رفع الهاتف يحتاج إلى قوةٍ لم تعد تملكها

استمر الهاتف في الرنين، مرةً بعد أخرى، وأياما أخري وكأن مدام مها ترفض أن تتركها وحدها مع أفكارها الثقيلة.

.لكن رحمة لم ترد

.كانت متعبة، خائفة، وقلقة إلى حدٍّ جعلها عاجزة عن أي شيء

.و ذات يوم ، سمعت طرقًا على الباب

.انتفض جسدها كله

.في ذلك الوقت، لم تكن تتوقع أن يطرق بابها أحد

.ساد الصمت المكان، بينما ازداد خوفها حتى شعرت بأن قلبها يكاد يخرج من صدرها

:ثم سمعت صوتًا مألوفًا يقول من خلف الباب

.افتحي يا رحمة ...أنا مدام مها

.ازداد بكاؤها

.ظلت مكانها لبعض الوقت، ثم نهضت بصعوبة

.كانت خطواتها متثاقلة، وكأنها تحمل فوق كتفيها عمرًا كاملًا من التعب

.بالكاد استطاعت الوصول إلى الباب وفتحه

.وما إن وقعت عينا مدام مها عليها حتى شهقت في دهشة

!رحمة

مالك؟

في إيه؟

.لم تجب رحمة

:اقتربت منها مدام مها وهي تناديها بقلق

!رحمة

.رفعت رحمة عينيها إليها للحظة، ثم أغمضتهما من شدة الإرهاق

.نظرت مدام مها إلى حال الغرفة، وإلى وجه رحمة الشاحب، فأدركت أن الأمر أكبر من مجرد تعبٍ عابر

:ثم قالت وهي تتجه إلى الخارج

.ما تقفليش الباب

.أنا هانزل حالًا وأرجع

.وخدي إجازة لحد ما تبقي كويسة

.ظلت رحمة وحدها من جديد

.كانت تحتاج إلى الراحة أكثر من أي شيء آخر

:وفكرت أن تأخذ إجازة كبيرة من المحل أيضًا، لكن سؤالًا أرهقها

كيف ستخبر صاحب العمل؟

أنا بقالي كام يوم هنا

:ثم همست لنفسها في حزن

.أنا كل شوية بتعب ...مرة كنت بردانة وروحت، وكذا مرة قبلها"

"طيب أقول له إيه؟

.كانت تخشى أن يعرف أحد ما تمر به

.لم تكن قادرة حتى على المشي بصورة طبيعية

:وأخذت تحدث نفسها بصوتٍ خافت

.أنا مش عايزة حد يعرف اللي حصل لي"

.أنا تعبانة أوي ...يا رب، ارجوك كون معايا

".ما تسبنيش .أنا مش فاهمة ليه كل ده بيحصل لي

:ثم سكتت لحظة، قبل أن تتمتم

"استغفر الله ...أنا بفكر كده ليه؟"

.لكن الألم كان أقوى من مقاومتها

أعمل إيه؟"

".أنا تعبت بجد ...كفاية كده

.وانفتحت في قلبها جراحٌ قديمة لم تلتئم يومًا

ليه بابا ما عاشش؟"

وليه ما عشتش مع بابا وماما زي باقي البنات؟

إيه حكمتك يا رب في كل اللي بيحصلي؟

...حتى أمي

.ما حسّتش يوم إنها بتحبني قد ما بتحب نفسها

.ولا حتى بتسأل عليّ

".وجدتي راحت هي كمان

:تدفقت الدموع من عينيها وهي تواصل حديثها مع نفسها

.وفي الآخر أعيش لوحدي، وأرضى بكل ده، وبرضه يحصل لي اللي بيحصل"

.وأنا أصلًا ما اخترتش حاجة من دي

...لا بجري ورا شهوة، ولا بعمل حاجة غلط

".ده كله غصب عني

:ثم رفعت رأسها إلى السماء وكأنها تبحث عن بصيص نور وسط عتمتها

".أنا راضية بحكمك يا رب ...بس ما تسبنيش .أنا تعبت"

.وشعرت فجأة بأن كل أحلامها القديمة تتساقط أمامها

.خلاص ...حياتي انتهت"

الفصل العاشر

مين أصلًا كان هيرضى يتجوز واحدة زيي؟

".لا أب، ولا أم، ودلوقتي حتى أنا بقيت مكسورة

حتى تعليمي ...ذلك الحلم الصغير الذي عشتُ أطارده سنوات، وأتعلق به كلما ضاقت بي الحياة .كنت أعمل من أجله، وأنتظر اليوم الذي أقول فيه" :أخيرًا خلصت"، وأمسك شهادتي بيدي .لم أكن أطمع في الكثير؛ .حتى لو كانت مجرد دبلوم، كان يكفيني أن أمتلك شهادة، وأن أشعر أنني تعلمت، وأن تعبي لم يذهب هباءً

.لكن يبدو أن هذا الحلم أيضًا لن يتحقق

:نظرتُ إلى الطريق الذي توقفت عنده، وابتسمتُ ابتسامة باهتة تخفي وراءها الكثير من الخيبة، ثم قلت لنفسي

"...كويس إني وصلت لحد تالتة إعدادي"

.وكأنها محاولة أخيرة للرضا، أو عزاء صغير أقدمه لقلبٍ كان ينتظر أكثر من ذلك بكثير

.وظلت غارقة في دوامة أحزانها وأفكارها، حتى كادت تفقد وعيها

.كانت رحمة تشعر أنها تنطفئ ببطء

.في عالمٍ جفّت فيه معاني الرحمة، ولم يبقَ فيه من يسأل عنها سوى مدام مها

:وتسللت إلى قلبها فكرة موجعة

".حتى لو متّ ...يمكن ما حدش يحس إني غبت"

.ثم أغمضت عينيها، بينما كان الصمت يملأ المكان، ثقيلًا كالحزن الذي استقر في روحها

.وسمعتْ صوتَ خبطِ الباب مرةً أخرى

،كانت قد تركت الباب مواربًا قبل أن تستلقي من شدة الإرهاق، فلم تمضِ لحظات حتى انفتح الباب ببطء

.ودخلت مدام مها تحمل عدة أكياس من الفاكهة والخضراوات وبعض الطعام

.ما إن رأت رحمة حتى أسرعت نحوها

.حاولت رحمة أن تستجمع ما بقي لديها من قوة لتنهض وتستقبلها، لكنها لم تستطع

.شعرت بدوارٍ عنيف يجتاح رأسها، وترنحت خطواتها قبل أن تسقط على الأرض

.صرخت مدام مها في فزع، وأسرعت تمسك بها قبل أن يرتطم رأسها بالأرض، ثم لم تتردد لحظة

.استعانت ببعض الجيران ونقلتها إلى المستشفى

.هناك بدأت رحلة طويلة بين التحاليل والأشعة والمحاليل المعلقة إلى جوار السرير الأبيض

ساعات ثقيلة مرت على رحمة وهي غائبة بين النوم والإفاقة، بينما كانت مدام مها تجلس إلى جوارها لا

.تفارقها، يملؤها القلق والخوف

.وحين استعادت رحمة وعيها أخيرًا، كانت هناك حقيقة صادمة قد ظهرت في نتائج الفحوصات

.رحمة حامل

حقيقة لم تكن مدام مها تتوقعها، ولم يخطر ببالها يومًا أن تسمع شيئًا كهذا عن تلك الفتاة التي عرفتها هادئة

.مستقيمة الخلق، شديدة الحياء، لا يعرف عنها أحد سوءًا

.ظلت مدام مها حائرة

كيف تخبرها؟

وهل تعرف رحمة أصلًا؟

كانت كلمات الطبيب تتردد في أذنيها، بينما تتصارع داخلها مشاعر كثيرة؛ دهشة، وفضول، وشفقة، وخوف على تلك الفتاة التي أحبتها كابنتها.

قررت في النهاية أن تتحدث معها.

كانت رحمة بدورها تشعر أن مدام مها تريد أن تقول شيئًا مهمًا.

كانت نظراتها مختلفة، وصمتها أطول من المعتاد.

كما أن رحمة نفسها بدأت تشعر بتغيرات غريبة في جسدها، لكنها لم تكن قادرة على فهمها أو تفسيرها.

كانت الحيرة تملأ قلب الاثنتين.

وقبل أن تبدأ مدام مها حديثها، دخل الدكتور بهاء إلى الغرفة.

ابتسم وهو يراجع الملف الطبي ثم قال:

مساء الخير. —

ردت مدام مها ورحمة معًا:

مساء النور. —

اقترب الطبيب من السرير ونظر إلى رحمة مبتسمًا:

عاملة إيه دلوقتي يا رحمة؟ —

الحمد لله. —

.كويس .بس لازم ترتاحي وتاكلي كويس وتنفذي التعليمات كلها —

.حاضر —

:أغلق الملف وقال بلطف

.سلامتك .ألف سلامة —

.الله يسلمك —

:ثم أشار إلى مدام مها

.اتفضلي —

.مع حضرتك يا دكتور —

.خرجت مدام مها معه إلى الممر للحظات، وتبادلا بعض الكلمات التي زادت حيرتها وأثقلت قلبها أكثر

.وعندما عادت إلى الغرفة، كانت رحمة تراقبها في صمت

.جلست مدام مها على المقعد المجاور للسرير، وظلت لحظات لا تعرف كيف تبدأ الحديث

.أما رحمة، فكانت تنظر إليها بقلق متزايد

.شعرت أن الأمر يتعلق بها

.بل شعرت، للمرة الأولى، أن مدام مها ربما عرفت شيئًا تخشاه منذ زمن

.وانقبض قلبها

:قالت في سرها

"أكيد عرفت ...أكيد هتكرهني ...بس أنا والله ما ليّا ذنب في أي حاجة ...يا رب استرها".

لكن مدام مها قطعت عليها دوامة أفكارها، وقالت بصوت هادئ حاولت أن تخفي به اضطرابها:

رحمة... —

رفعت رحمة عينيها إليها.

نعم؟ —

ترددت مدام مها قليلًا، ثم سألت مباشرة:

انتي اتجوزتي يا رحمة؟ —

ارتعشت ملامح رحمة فجأة.

وسقط السؤال على قلبها كحجر ثقيل.

أدركت في تلك اللحظة أن لحظة الهروب انتهت، وأن الحقيقة التي ظلت تدفنها داخلها لم يعد ممكنًا إخفاؤها.

تنهدت طويلًا، وأغمضت عينيها لثوانٍ، ثم فتحتها وقد اتخذت قرارها أخيرًا.

سوف تحكي كل شيء.

سوف تروي الحقيقة كاملة، مهما كانت قاسية، ومهما كان الثمن.

الفصل الحادي عشر

ظلت رحمة تروي كل ما حدث لها، وتحكي تفاصيل ما فعله بها زوج مدام مها، كلمة بعد كلمة، وهي .تتأرجح بين الخوف والقلق، وكأنها تعيد عيش المأساة من جديد مع كل جملة تنطق بها

،كانت تتوقع أن ترى على وجه مدام مها صدمة أو غضبًا أو حتى دمعة حائرة، فالأمر لا يتعلق برجل غريب .بل بزوجها هي

.لكنها فوجئت برد فعل لم يخطر لها على بال

.جلست مدام مها تستمع إليها في هدوء غريب، هدوء أثار دهشة رحمة أكثر مما أثارتها كلماتها نفسها

.لم يظهر على ملامحها أي انفعال، وكأنها تستمع إلى قصة تعرف نهايتها مسبقًا

:وحين انتهت رحمة من حديثها، تنهدت مدام مها وقالت بهدوء

.. "أنا يا رحمة كنت حاسة إنه جايبك عشان حاجة ...مش كده وخلاص

.وإنتِ مش أول ضحية ليه، وللأسف مش هتكوني آخر واحدة

".ياما عرف بنات وسابهم قبل كده ...بس إنتِ أول واحدة يحصل معاها حمل

.شعرت رحمة وكأن الكلمات سقطت فوق رأسها دفعة واحدة

:أكملت مدام مها

".. "عشان كده أنا هساعدك، ومش هسيبك، وهخلّيه يتجوزك

.حدقت رحمة فيها غير مصدقة

كانت تعرف جيدًا طيبة هذه المرأة وحسن أخلاقها، لكنها لم تستوعب كيف يمكن أن يكون رد فعلها هكذا بعد كل ما سمعته.

شعرت مدام مها بما يدور داخلها، فابتسمت ابتسامة باهتة وقالت:

"مالك يا رحمة؟ مش مصدقة؟".

خفضت رحمة رأسها وقالت في ارتباك:

"لا ...العفو يا مدام مها ..

بس أنا آسفة ...أنا ماليش أي ذنب في اللي حصل.

أنا ضحية".

هزت مدام مها رأسها برفق.

"وأنا عارفة كده يا حبيبتي .وعشان كده هساعدك ..

ثم أضافت بنبرة حاسمة:

"وأوعدك ...هخلّيه يطلقني ..

اتسعت عينا مدام مها في ذهول.

"أنا مش عايزة أتجوزه ...أنا بس عايزة يستر عليّا ..

ابتسمت مدام مها بحزن عميق.

"ما تقوليش كده .ده حقك ...وده جوزك، وأبو الطفل اللي في بطنك ..

".أنا هعمل الصح، وهعمل اللي يرضّي ضميري وربنا

:سكتت لحظة، ثم أكملت

".. "بكره وبعده ...وربنا يسهّل

.عجزت رحمة عن الرد

.كانت الكلمات أكبر من قدرتها على الاستيعاب

.فمدت مدام مها يدها وربتت على كتفها بحنان

:قالت رحمة بصوت متأثر

".. "والله مش عارفة أقول لحضرتك إيه

:ابتسمت مدام مها ابتسامة مرهقة وقالت

".. "ما تقوليش حاجة ...وماتستغربيش مني .أنا ما وصلتش للي أنا فيه دلوقتي إلا بعد سنين طويلة أوي

.ثم سكتت لحظة، وكأنها تنظر إلى سنوات عمرها كلها أمامها

:وقالت بصوت خافت

.. "أنا يأسِت من جوزي

.بقيت عارفة إنه مافيش حاجة إلا وبيعملها

.ففوّضت أمري لله، ورميته من ورا ضهري

".كفاية عليّا عيالي ...أربيهم وأعيش عشانهم وليهم

:ارتجف صوتها قليلًا وهي تكمل

.. "أنا مش عايزة من الدنيا حاجة تانية .وبروح، زي ما إنتِ عارفة، يوم واحد في الأسبوع عند أهلي

".دي أول مرة في حياتي أقول الكلام ده لحد

.ثم نظرت إلى رحمة نظرة طويلة تحمل قدرًا هائلًا من التعب والتسليم

:وأضافت

".. "بس خلاص ...إنتِ هتبقي مراته، ولازم تاخدي بالك من نفسك .وربنا يستر

.ساد الصمت بينهما

.صمت ثقيل، ممتلئ بالحزن والشفقة والأقدار التي لا يملك أحد تغييرها

:خفضت رحمة رأسها، ولم تجد ما تقوله سوى كلمة واحدة

".. "حاضر

لم أفهم بعض العبارات التي قالتها لي مدام مها .كانت كلماتها عادية في ظاهرها، لكن شيئًا في نبرة صوتها

.أثار قلقي .عندما قالت" :ربنا يستر"، تغير صوتها فجأة، واختلف تمامًا عن بقية حديثها معي

.شعرت لحظتها وكأنها تعرف شيئًا لا أعرفه، وكأن هناك أمرًا ما يقترب في صمت، لا يعلمه إلا الله وهي

:ثم تمتمت بصوت خافت، كأنها تحدث نفسها أكثر مما تحدثني

".استرها يا رب ...رضيت بحكمك يا رب وبحكمتك، بس صبرني وكون معايا"

:سكتت قليلًا، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت

الحمد لله إنك لسه فاكرني وبعتلي مدام مها عشان تساعدني .وقفت جنبي النهارده في المستشفى، ولما رجعنا قعدت معايا، وجهزتلي أكل كمان، وهتساعدني."

الفصل الثاني عشر

.غادرت مدام مها في ذلك اليوم، لكنها عادت في اليوم التالي مختلفة تمامًا

.كانت ملامح وجهها شاحبة، وعيناها مضطربتين لا تستقران على شيء

.كانت تنظر حولها باستمرار، وكأنها تهرب من فكرة تلاحقها، أو من حقيقة تخشى أن تنطق بها

.راقبتها في صمت، وأنا لا أفهم ما الذي يحدث حولي

.كان هناك سر ثقيل يختبئ خلف نظراتها، شيء تخاف أن تقوله، أو ربما لا تملك الشجاعة للاعتراف به

:رفعت رأسي إلى السماء وتمتمت

".كون معايا يا رب ...أشكرك إنك بعتهالي في وقت كنت يئست فيه، بس ساعدني"

.وظلت رحمة حبيسة غرفتها ساعات طويلة، لا تكاد تخرج منها إلا قليلًا

.ومع مرور الأيام بدأ خوفي يهدأ شيئًا فشيئًا، وقررت أن اعود إلى المحل مرة أخرى

:وقفت أمام المرآة أتأمل نفسي، ثم قلت في هدوء

.كون معايا يا رب ...خلاص هرجع أنزل الشغل تاني"

".الحمد لله بقيت أقدر أمشي، والدوخة بقت أحسن

.لكن مدام مها فاجأتني بطلب غريب لم أتوقعه

:قالت وهي تنظر إليّ نظرة لم أفهم معناها

".عايزاك أول ما تنزلي الشغل ترجعيلي الشغلانة"

.توقفت لحظة أحدق في وجهها

.لم أفهم سبب إصرارها، ولا سر تلك النظرة القلقة التي لم تفارق عينيها

.لكنني شعرت أن وراء كلماتها البسيطة حكاية أكبر لم تُروَ بعد

كانت رحمة تعيش بين قلبٍ ممزقٍ بين حبّها ل»مدام مها «وامتنانها لها، وبين تلك الشقّة وتلك الواقعة التي لم تستطع أن تفهمها أو تستوعب أبعادها .كان الخوف يسكن صدرها، والتردد يثقل خطواتها، والارتباك ينهش .أفكارها، وأسئلة كثيرة تتزاحم في عقلها بلا إجابة

،ومع ذلك ...نفّذت ما طُلب منها .أطاعت، وسارت كما أرادت لها مدام مها، ثم أنهت يوم عملها بصعوبة .«واتجهت إلى بيتها وهي تهمس لنفسها برجاءٍ خافت» :يا رب استر ...يا رب كن معي ...يا رب نجّيني

كانت قدماها تتباطآن وكأنهما تريدان أن تعودا أدراجهما أكثر مما تمضيان إلى الأمام، لكن شيئًا خفيًا كان .يدفعها دفعًا حتى وجدت نفسها أمام باب المنزل .رفعت يدها المرتعشة وضغطت الجرس

.فُتح الباب

:مدام مها

.«اتفضلي يا رحمة»

في الداخل، كان »المعلم سعد «جالسًا، وما إن سمع الاسم حتى تجمّد مكانه، كأن صدمة خفيفة هزّت .داخله

.حاول أن يضبط أعصابه، أن يفهم ما الذي يحدث، أو ما الذي جرى خلف ظهره

.دخلت رحمة بصمت ثقيل، عيناها في الأرض، وملامحها شاحبة

.أما سيد، فكان ينظر إليها بطرف عينه، نظرة سريعة محمّلة بالشك والقلق

.لكن مدام مها لم تمنحه فرصة للتردد أو التساؤل

:تقدّمت بثبات وقالت بحدة محسوبة

:مدام مها

بص يا سيد ...إنت عرفت دلوقتي أنا ليه خليتك تيجي من الشغل النهارده، وليه وديت العيال عند بيت»
.«أهلي رغم إن النهارده مش الجمعة

:توقّفت قليلًا، ثم أكملت وهي تنظر إليه مباشرة

.«إنت لازم تتجوز رحمة»

:ارتبك سيد، وقال بذهول

«!إيه؟»

:مدام مها، دون أن تتراجع

رحمة حامل منك يا سعد ...وأنا اتكلمت معاك قبل كده، وقلتلك لازم الموضوع يتلم .لازم تتجوزها .أنا»
.«مش هسيبها كده .ده ستر وسمعة، وحرام اللي بيحصل

:اقتربت منه أكثر، وصوتها يحمل غضبًا مكبوتًا

.حرام عليك ...عندك بنات، اتقي ربنا»

.اللي بيعمله ربنا بيحاسب عليه

.«أنا مش بطلب منك حاجة غريبة ...اتجوزها واسترها

.أما سيد، فكان جامدًا كالصخر، لم يتزحزح فيه شيء

:نظر إليها ببرود وقال

:سيد

.«أنا مش هتجوز حد»

:صرخت مدام مها

«!أمال عملت فيها كده ليه؟ !مش كنت قادر تسيبها في حالها؟ حرام عليك»

:في تلك اللحظة، انهارت رحمة .ارتجفت، ثم قالت بصوت مكسور ممزوج بالغضب والخذلان

:رحمة

...هو أنا عملت لك إيه؟ كنت سيبني في حالي ...أنا فيا اللي مكفيني، والناس كلها شايفة !حرام عليك»

«!حرام عليك

.ثم لم تقوَ على الوقوف، فانهارت مغشيًا عليها

أسرعت مدام مها إليها تحاول إفاقتها، بينما كان سيد قد استدار وغادر المكان دون أن يلتفت، وكأن .الكلمات لم تمسّ داخله أصلًا، وكأن شيئًا لم يحدث

:وظلّت تُحدّثها بإلحاح، وصوتها يعلو شيئًا فشيئًا كأنها تحاول أن تزرع فيها شجاعة لا تملكها بعد

.أنا عايزاكي تجمّدي كده ...لازم تاخدي حقك —

.الموضوع ده مافهوش هزار ولا سكوت .لازم تتكلمي، لازم الناس كلها تعرف .ماينفعش تفضلي ساكتة

:ثم أضافت بنبرة حاسمة

.انزلي دلوقتي، دي فرصتك —

.هو تحت شغّال في المحل

.واجهيه بصوتك كله، وخلّي الكل يسمع .وقولي كل اللي حصل

.الناس أصلًا مش غريبة ...كتير عارفين إنه مش كويس

:كانت رحمة في البداية تتردد، تتعلّق بخيط الخوف كأنّه آخر ما يربطها بالعالم .كانت تهمس

...الأول DNA أنا كنت بقول نستنى ...نعمل تحليل —

:لكن ''مدام مها ''لم تترك لها فرصة للتراجع، بل ازدادت إصرارًا، وكأنها تدفعها دفعًا نحو هاوية لا مفر منها

بكرة وبعده هتندمي يا رحمة ...لو ما عملتيش كده، مش هيعترف أبدًا إنه من دمه .لازم حد من أهلك —

.يبقى معاكي، ماينفعش تروحي لوحدك

:سكتت رحمة لحظة، ثم قالت بصوت مرتجف

...إنتِ عارفة ظروفي ...وموضوع أمي —

:فردّت مدام مها بسرعة

عشان كده لازم تروحي لها .هي تسندك .وخلي سيد يخاف .الراجل ما بيخافش غير لما يحس إن وراكي —

.حد .لو كان متأكد إن ليكي ضهر، ماكنش جرؤ يعمل كده من الأساس

.هزّت رحمة رأسها بصمت .كانت تعرفه ...تعرف قسوته، وتعرف أكثر هشاشتها هي

.ثم قامت

ذهبت إلى والدتها، وقصّت عليها كل شيء كما يُروى خبر عابر، لا كجرحٍ مفتوح ينزف داخلها .تحدثت .كأنها تحكي شيئًا لا يمسّها، ولا يخص قلبها

لكن الأم، مثل ما توقّعت رحمة، لم تُظهر ذهولًا، ولا انكسارًا، ولا حتى غضبًا .استقبلت الكلمات ببرود .غريب، كأنها لا تخصها

وبعد لحظات صمت ثقيل، استأذنت رحمة وانصرفت بمفردها، تحمل وحدها ما ظنّت أنه سيجد سندًا في بيتها .خرجت وهي تظن أن هذه الخطوة ستغيّر شيئًا، أو على الأقل ستجعل الحقيقة تُقال ...لكنها مضت رغم .تعبها، كأنها تمشي نحو مجهول لا تعرف إن كان فيه إنصاف، أم مزيد من الانكسار

الفصل الثالث عشر

وقفت رحمة أمام محل زوج مها، وجسدها يرتجف من شدة الانفعال، ثم انفجرت بصوتٍ عالٍ جذب الناس من حولها:

قالت وهي تلهث من البكاء والغضب» :إنت يا معلم ...إنت اللي الناس كلها كانت فاكراك راجل كويس ...وبتاع ربنا ...وأنا اللي دخلت بيتك شغل عشان خاطر محبتك لوالدي الله يرحمه

وفي الآخر تعمل فيا كده؟

«تسقيني عصير وتغتصبني؟

بدأ المارة يتجمعون، والعيون تتسع دهشةً وصدمة، بينما رحمة لا تتوقف، كأن الكلمات تخرج منها جرحًا مفتوحًا» :وتقولوا عليا كدابة؟!

وتسيبني كده؟!

«...أنا جاية أقول الحقيقة قدام الناس

«تعالوا يا ناس شوفوا الراجل اللي شغال عنده في بيته عشان يعمل فيا كده !شوفوا الظلم بعينه» :

وتعالت الأصوات، واختلطت الاتهامات بالدهشة، حتى صار المكان ساحة صاخبة لا يسمع فيها إلا الغضب.

رحمة كانت ترتجف، لكنها واصلت حديثها بعناد موجوع» :وفي الآخر مش راضي يتجوزني ولا يعترف باللي في بطني ...عشان يهرب من مسؤوليته!»

لكن المعلم لم يصمت، بل اندفع هو الآخر، وصوته يعلو في محاولة لقلب الموقف» :إنتِ كدابة!

إنتِ صايعة وجاية تتبلي عليا!

!شوفي مين اللي عمل فيك كده

أنا كنت في المحل وانتي في بيتك، لا شوفتك ولا أعرفك !ولو زودتي هابلّغ الشرطة، والحق عليا إني سترتك ولَمّيتك!»

.ساد صخب أكبر، وبدأت الأصوات تتداخل، كلٌ يدافع عن روايته

غير أن المشهد لم يكن بهذه البساطة؛ فقد خرجت سيدتان من بين الحاضرين، وتحدثتا بأنهما رأتا رحمة يوم الجمعة في طريقها إلى المنزل، في وقت كان الناس يستعدون للصلاة، وأن المعلم حاول الاقتراب منها والتعرض لها، ولولا تدخل بعض المارة لكان الأمر تطور أكثر من ذلك.

.وعندما سمع الناس ذلك، تبدلت النظرات، وبدأت الشكوك تميل نحو رواية رحمة

أما هي، فانهارت تمامًا، تبكي بحرقة وهي تكرر وسط دموعها» :أنا بقول الحقيقة ...والله العظيم بقول الحقيقة...»

وفي لحظة، لم يعد المكان مجرد شارع ...بل صار محكمة مفتوحة، فيها قاضٍ اسمه الناس، وحكمه يتأرجح بين الصدمة والتعاطف والغضب.

في زاوية المشهد المشتعل، وبين أصوات الناس المتداخلة، تقدّم رجل كبير في السن، وقور الملامح، هادئ الخطى، كان في الخامسة والخمسين من عمره، عريض المنكبين، قوي البنية رغم أن الشيب قد غزا لحيته الكثيفة وخطوط الزمن حفرت أثرها حول عينيه .أمضى عمره بين السكاكين والموازين في محل الجزارة الذي ورثه عن أبيه، حتى صار اسمه معروفًا في السوق بالأمانة وحسن المعاملة.

.يعرفه أهل الحي كما يعرفون أبواب بيوتهم ...كان عم فتحي، الجزار، أحد أصدقاء والد رحمة رحمه الله

اقترب منها ببطء، كأنه يخشى أن يكسرها أكثر مما هي مكسورة، ثم أشار للناس أن يهدأوا، وأخذها جانبًا بعيدًا عن الضجيج.

...قال بصوت منخفض فيه حنان رجلٍ خبر الدنيا» :اهدي يا بنتي ...اهدي .احكيلي كل حاجة من الأول وأنا مش هسيبك».

نظرت إليه رحمة بعينين غارقتين في الدموع، كأنها وجدت في وجوده أول مساحة أمان منذ زمن طويل، ثم بدأت تحكي ...تحكي كل شيء، بلا ترتيب، لكن بكل وجع.

كان يستمع دون مقاطعة، وجهه يتبدل بين الغضب والحزن، وبين الشفقة والدهشة، حتى انتهت كلماتها وهي تتهدج بالبكاء.

«.تنهد عم فتحي طويلاً، ثم قال» :حسبي الله ونِعم الوكيل ...ده ظلم يا بنتي، وظلم تقيل كمان

...ثم صمت لحظة، وكأنه يقلب الأمر في رأسه، قبل أن يضيف بصوت حاسم» :أنا مش هسيبك يا رحمة وهتجوزك عشان أستر عليك وأقف في ضهرك».

ارتبكت رحمة، لم تكن تتوقع الجملة بهذه الصورة، فاختلطت داخلها مشاعر متناقضة بين امتنانٍ ودهشةٍ وخوف، لكن عم فتحي أكمل بهدوء» :بس الطفل ...أنا مليش دعوة بيه.

«.أنا بساعدك وأستر عليك، لكن ده مش ابني

سكتت لحظة، ثم هزّت رأسها في صمت، كأنها لم تعد تملك رفاهية الاعتراض أو الاختيار .كانت فرحتها صغيرة، متكسرة، لكنها في النهاية فرحة بوجود من ينقذها من السقوط الكامل.

وبعد أيام، تم الزواج كما اقترحه بعض نساء الحي، لا كحكاية حب، بل كستارٍ ثقيل يحاول أن يحمي امرأة من نظرات الناس أكثر مما يحمي قلبها.

ومع مرور الوقت، عرفت أم رحمة الحقيقة، وأن لها ابنة تُدعى رحمة .لم يكن في قلب الأم إلا لهفة متأخرة فبدأت تتقرب منها شيئًا فشيئًا.

لكن رحمة، التي لم تتعلم كيف تكره ولا كيف تسامح بسهولة، كانت تستقبلها وكأن شيئًا لم يكن؛ لا مواجهة ولا عتاب، وكأن الماضي طُوي دون أن يُفتح.

كانت الأم تزورها بين الحين والآخر، وتأتي معها ببعض ما تستطيع، بينما عم فتحي، بطبعه القديم، يبالغ في الاهتمام بها، يطعمها ويُحسن إليها، ويملأ بيتها بما تيسر من اللحم والطعام، كأنه يحاول أن يعوضها عن كل ما فاتها في الحياة.

ورغم ذلك، كانت رحمة تسير في أيامها كمن لا يملك نفسه تمامًا؛ تأكل حين يُقدم لها الطعام، وتتحرك حين يُطلب منها، كأن الحياة نفسها أصبحت شيئًا يُدار عنها لا بها...

لكن أمَّها كانت شديدة التعلُّق بالمعلم فتحي، تعلقًا جعلها لا تسمع يومًا شكوى ابنتها، ولا تُلقي بالًا لما تعانيه .حتى خدمتها الدائمة له لم تكن نابعة من محبة أو وفاء، بقدر ما كانت محاولة للتقرُّب منه وكسب رضاه ووِدّه.

أما رحمة، فلم تكن تشغلها تلك الحسابات كلها .لم تكن تفكر في نفسها، ولا في ما قاسَته من ألمٍ أو إهانة كان همُّها الوحيد هو ذلك الطفل الصغير الذي ينتظر أن يرى النور، والمصير المجهول الذي ينتظره.

،وفي الحي كان الناس على طبائع شتى .بعضهم رقَّ قلبه لحالها، فحاول أكثر من مرة أن يتحدث إلى سيد .صاحب الورشة، علَّه يجد حلًّا أو يخفف عنها ما تعيشه .لكنه كان يرفض دائمًا، ويغلق كل باب يُفتح أمامه

وكان هناك آخرون لا يعرفون الرحمة إلى قلوبهم سبيلًا، يراقبون ما يحدث ببرود، أو يضيفون إلى جراحها جراحًا جديدة .وكما هي الحال في كل مكان، كان بين الناس أهل خيرٍ وأهل شر، وقلوب بيضاء وقلوب لا ترى إلا .نفسها

وظلت رحمة على هذه الحال أيامًا طويلة، تتأرجح بين الخوف والانتظار، حتى جاء ذلك اليوم الذي شعرت .فيه أمها بأن موعد الولادة قد اقترب

الفصل الرابع عشر

لكن رحمة لم تكن تشبه أي فتاة أخرى تنتظر مولودها الأول .لم تكن تفكر في ألم المخاض القادم، ولا في ،التعب الذي ينتظرها .ولم تكن تجهز للطفل بلهفة الأمهات وفرحتهن المعتادة .كانت تنظر إلى المستقبل بعينٍ قلقة .وكأنها تبحث في الضباب عن طريق لا يظهر

"ولم تفرح حتى بقدوم ابنها رغم كثيراً من النساء يفرحن بقدوم مولود ولد "ذكر "وليس بنت "أنثي

"وكأن الولد سوف يغيّر الدنيا كلها؟"

.ثم عادت إلى صمتها الطويل، تحمل بين ضلوعها خوفًا أكبر من أن تعبّر عنه الكلمات

لم تعرف رحمة فرحة الأمومة كما تعرفها سائر الأمهات .فمنذ أن وضعت طفلها، كان الحزن يجلس إلى جوارها في كل لحظة، يراقبها ويشاركها أنفاسها .كانت تنظر إلى صغيرها بعينين ممتلئتين بالخوف أكثر من الفرح، وبالقلق .أكثر من الاطمئنان

لم تجد في نفسها القدرة على إعداد ما يحتاجه المولود من ملابس أو أدوات أو حتى أحلام صغيرة كانت كل .أم تنسجها لطفلها القادم .وظلت تحت رعاية الطبيب أيامًا، حتى أذن لهم بالخروج من العيادة والعودة إلى المنزل

.هناك بدأت مشكلة جديدة تطرق بابها

وكان الطفل، ككلّ مولودٍ جديد، في حاجةٍ إلى التطعيمات ورعاية الوحدة الصحية، غير أنّ السؤال ظلّ معلقًا :كيف تُمنح له هذه الرعاية وهو لم يُسجَّل بعد؟

".لذلك امتنعت الوحدة الصحية عن إعطائه التطعيمات، لأنه لم يكن قد أُدرج في السجلات الرسمية

في نظر الدولة لم يكن له وجود بعد .لم يكن هناك قيد ميلاد يثبت هويته، ولذلك رفض مكتب الصحة إعطاءه التطعيم المطلوب إلا بعد استخراج شهادة ميلاد رسمية .حاولوا مرات عديدة، وسلكوا أكثر من طريق، وطرقوا أكثر من باب، لكن كل المحاولات كانت تنتهي إلى الرفض.

كانت رحمة تشعر بالعجز يلتهمها شيئًا فشيئًا.

لا أوراق تثبت وجوده.

لا تطعيم يحميه.

ولا مستقبل واضحًا يمكن أن تراه أمامه.

وكانت الأسئلة القاسية تطاردها كل ليلة:

لماذا جاء إلى هذه الدنيا؟

كيف ستكون حياته عندما يكبر؟

وماذا سيقول الناس عنه؟

كانت تعرف قسوة الألسنة، وتعرف كيف يحوّل الناس أخطاء غيرهم إلى وصمة لا تموت.

ومع تراكم التعب، وقلة النوم، وآثار ما بعد الولادة، وكل ما مرت به من خوف وضغط وإهانة، بدأت الأفكار السوداء تتسلل إلى رأسها كالدخان.

راودتها أفكار مرعبة كانت ترفضها وتحاربها في البداية، ثم تعود فتطاردها من جديد.

.وفي إحدى الليالي رأت حلمًا أقلقها بشدة

رأت نفسها تسير في شارع طويل، ثم لمحت طفلها واقفًا بعيدًا عنها .أسرعت نحوه بلهفة، لكنه نظر إليها كأنها .غريبة لا يعرفها، ثم ابتعد ومضى

.استيقظت مذعورة

.كانت دموعها تسبق أنفاسها

.وشعرت يومها أن شيئًا ينكسر داخلها

.ومنذ تلك الليلة، ظل الحلم يطاردها كلما أغمضت عينيها

:وفي أعماق رأسها كان يتردد صوت المعلم سيد، ذلك الصوت الذي لم يغادرها يومًا

".اتخلصي منه ...ريحي نفسك وريحيني"

وكانت أمها قد أيدت هذه الفكرة أكثر من مرة أثناء الحمل، لكن رحمة كانت ترفضها بشدة، وتتمسك .بطفلها كأنه آخر ما بقي لها من هذه الحياة

.إلا أن الصراع داخلها كان يزداد قسوة يومًا بعد يوم

.كانت تجلس إلى جوار صغيرها، تنظر إليه طويلًا، بينما تتزاحم في عقلها المخاوف والهواجس والذكريات المؤلمة

.وفجأة شعرت أن الدنيا كلها تدور حولها

.اختلطت الأصوات

.وتداخلت الصور

.ولم تعد تميز بين الواقع وما يدور داخل رأسها

كانت تنظر إلى ابنها الرضيع المستلقي بجوارها، بينما تتزاحم في رأسها الأصوات كأنها لا تهدأ .صوت المعلم ،سيد يتردد في ذاكرتها بإصرارٍ قاسٍ" :تخلّصي منه"، وتأكيد والدتها، وبعض نساء الشارع اللواتي لم يرحمن ضعفها .كأن الجميع قد اتفق على دفعها إلى حافةٍ لا عودة منها

وكانت هي بين ذلك كله تعيش اضطرابًا داخليًا ثقيلًا، امتزج فيه اكتئاب ما بعد الولادة بالحزن، وببقايا ألم .الحمل وما مرّت به من خوفٍ وتعبٍ وصمت

ومع تزايد ذلك الضغط الذي لم تجد له مهربًا، نظرت إلى طفلها مرةً أخرى، كأنها تبحث في ملامحه عن نجاةٍ أو سببٍ يمنعها من الانهيار، لكن كل شيء كان يزداد اختناقًا داخلها .وفي لحظةٍ غائمةٍ بالارتباك والإنهاك، امتدت يدها إليه، وفعلت ما لم يكن ينبغي أن يُفعل، خنقته، نعم كما يقرأ القارئ الآن، دون وعيٍ مكتمل ولا إدراكٍ صافٍ، ودون رحمةٍ أو قدرةٍ على التراجع، مثل ماتفعل القطط بصغارها ظننا منهم أنها تحميهم، كأنها كانت في .غيابٍ عن نفسها أكثر مما كانت في حضورها

الفصل الخامس عشر

.ثم خرجت من الشقة تسير في الشوارع بلا هدف، كأنها تائهة داخل عمرها كله

كانت ترى حياتها تمر أمام عينيها في شريط طويل؛ من أيام طفولتها وهي تلعب في الأزقة الضيقة، إلى سنوات .الشقاء والخوف والخذلان، وحتى اللحظات الأخيرة التي سبقت خروجها من البيت

.وفي وسط ذلك كله ظل صوت المعلم سيد يطاردها، يتردد في أذنها كالصدى البعيد الذي لا يريد أن ينتهي

ذهبت رحمة إلى قسم الشرطة، وقد بدا عليها من شدة الإنهاك والاضطراب النفسي ما جعل بعض الضباط ينظرون إليها باعتبارها فتاة فقدت توازنها العقلي .جلست تحكي ما حدث منذ البداية، كلمةً كلمة، وتفصيلًا بعد .تفصيل

وبينما كانت تتحدث، مرّ رئيس المباحث أمام المكتب، فاستوقفه صوتها المرتجف .أصغى إليها لدقائق، ثم .نظر إليها طويلًا، وكأن خبرته الممتدة لسنوات كانت تبحث بين كلماتها عن الحقيقة

:قال للضباط

.. جهزوا قوة ...ونروح العنوان حالًا

وعندما عادت رحمة مع رجال الشرطة إلى الشقة، اندفعت نحو الغرفة التي كانت تجلس فيها مع طفلها .فتحت .الباب بعنف، ثم جالت بعينيها في المكان

.لم تجد أحدًا

:تجمدت للحظة، ثم أطلقت صرخة مزقت سكون الشقة

!. فين ابني؟ !فين؟ !قولولي ابني فين؟

،انهارت على الأرض وهي تصرخ بجنون، فحاول الضباط السيطرة عليها .وظلوا رجال الشرطة مواصلة البحث

.لكنهم لم يعثروا على الطفل، ولم يجدوا أي دليلٍ يؤكد روايتها

:هزّ بعض الضباط رؤوسهم قائلين

.. دي أكيد مضطربة نفسيًا ...ومتهيألها كل اللي بتقوله

.لكن رئيس المباحث ظل صامتًا

.كان يشعر أن وراء القصة شيئًا خفيًا لم يظهر بعد

:تجمدت للحظة، ثم أطلقت صرخة مزقت سكون الشقة

!. فين ابني؟ !فين؟ !قولولي ابني فين؟

.انهارت على الأرض وهي تصرخ بجنون، فحاول الضباط السيطرة عليها

.وفي الوقت نفسه بدأوا في استجواب المعلم فتحي ووالدتها

.وبعد ضغط طويل، انكسر صمت المعلم فتحي

:خفض رأسه وقال بصوت متردد

.. أيوه يا باشا ...أنا لما رجعت من المحل لقيت باب الشقة مفتوح

.دخلت أدور على رحمة، ما لقيتش حد

.ولما دخلت الأوضة ...لقيت الولد ميت فوق السرير

.ساد الصمت

:ثم أكمل

.. اتصلت بأمها ...وجت على طول

.وبعدها أخدوا الجثة ودفنوها

.كانت الكلمات تخرج منه ثقيلة، كأن كل حرف يحمل وزنه من الذنب والخوف

.تحرك رجال الشرطة فورًا إلى المدافن التي أرشدهم إليها، وهناك كانت الحقيقة تنتظرهم في صمتها القاسي

.وجدوا جثة الطفل

ذلك الطفل الصغير الذي لم يجد في حياته قلبًا يرحمه، حتى رحمة نفسها لم تعرف كيف تمنحه الرحمة التي كانت .تبحث عنها طوال عمرها

.كانت ضحية قبل أن تصبح متهمة

.ضحية للفقر، وللجهل، وللوحدة، وللقسوة التي أحاطت بها من كل جانب

وعندما أُحيلت القضية إلى النيابة، أوصت ـ بأن تُدفن رحمة إلى جوار طفلها إذا انتهت حياتها قبل أن تنتهي .آلامها

.أما القاضي، فقد جلس طويلًا أمام أوراق القضية

.كان محتارًا

كيف يحكم على امرأة هي في الوقت نفسه متهمة وضحية؟

كيف يزن الجريمة بميزان القانون، بينما تقف خلفها سنوات من القهر والانكسار؟

وكيف يتعامل المجتمع مع عشرات الفتيات اللواتي يُخدعن بكلمات الحب، ويُستدرجن بوعود كاذبة، ثم يجدن أنفسهن وحيدات في مواجهة حملٍ لا يملكن له سندًا ولا حماية؟

.ظل السؤال معلقًا في القاعة، أكبر من القضية نفسها

. فلو أن رحمة عاشت حياة كريمة، في بيت يعرف المودة والأمان، ربما كانت ستصبح إنسانة مختلفة؟

وما مصير كل فتاةٍ خدعها شاب ، ثم تركها تواجه العالم وحدها؟

ما مصير تلك التي لم تجد أهلًا يحمونها، ولا سندًا تتكئ عليه، ولا ظهرًا يحتمي به ضعفها حين اشتدت عليها قسوة الأيام؟

وما مصير ذلك الطفل الذي جاء إلى الدنيا بريئًا من كل شيء؟

طفلٌ لم يختر ظروف مولده، ولم يكن طرفًا في الحكاية، ومع ذلك قد يجد نفسه يحمل أوزارًا لم يرتكبها، وأحكامًا .لم يصدرها إلا مجتمعٌ اعتاد أن يُدين الضحية أكثر مما يُحاسب الجاني

.كانت تبحث رحمة طوال حياتها عن حياة فيها رحمة أو حتي فتات من الرحمة

.لكنها لم تجد الرحمة في أي محطة من محطات عمرها